جورج واشنطون والديمقراطية الامريكية

إذا ذكر الأمريكى اسم واشنطون ارتسمت فى ذهنه صورة أعظم الأمريكيين فى شرف الغاية واستقامة السلوك . وعاصمة الولايات المتحدة تتسمى بهذا الاسم تقديراً للزعيم العظيم الذى حقق الاستقلال لوطنه وعبّد الطريق لكى يسير الشعب الأمريكى عليه نحو الديمقراطية .

وقد وُلد جورج واشنطون فى ١٧٣٢ فى أسرة إنجليزية الأصل كانت قد هاجرت إلى القارة الجديدة فى ١٦٥٧ . ولم يحصل الصبى على تعليم مدرسى راق . ولم تكن الجامعات وقتئذ منتشرة بين المهاجرين . والتحق منذ أن بلغ الشباب بعمل كاسب هو مسح الأرض للورد فيرفاكس . وكان هذا اللورد يملك نحو ستة ملايين فدان أى أكبر من الأرض المزروعة فى القطر المصرى كله . وهذا القدر من الأرض يدلنا على أن « الدنيا الجديدة » كانت جديدة بالفعل تنادى من يشتريها وتكشف عن كنوزها للقادمين إليها من المهاجرين الأوربيين . وكان سكانها الأصليون الأمرنديون فى طور بدائى من الحضارة يعجزون عن استثمار الأرض. فكان المهاجرون يطاردونهم نحو الغرب ، ويستعمرون الأرض بالزراعة. ومارس واشنطون مساحة الأرض وعرف الأمرنديين وأدرك من الأبعاد الجغرافية الشاسعة لهذا الوطن الجديد عظمة المستقبل الذى ينتظر الأمريكيين .

وكانت أمريكا فى ذلك الوقت موضوع النزاع بين فرنسا وبريطانيا كل منهما تحاول اغتصاب ما تملكه الأخرى أو السبق إلى الأرض البكر واحتلالها . وكان التصادم بين الدولتين لا ينقطع . واختير واشنطون لمحاربة الفرنسيين على رأس كتيبة من المهاجرين . وبقى يقاتل إلى أن تم الصلح بين الدولتين فى ١٧٦٢ .

ثم قام النزاع بين المهاجرين وبين الحكومة البريطانية بشأن فرض الضرائب هل هو من حق الإنجليز أم من حق الأمريكيين فى ١٧٧٦ . وكان واشنطون القائد الأعلى للقوات الأمريكية . وفى ٤ يوليه من تلك السنة أعلن استقلال

الولايات المتحدة ، وهو العيد الذى يحتفل به الشعب الأمريكى كل عام .

واستمرت الحرب عدة سنوات انتهت بالصلح الذى عقد فى باريس فى سنة ١٧٨٣ وهو الصلح الذى اعترفت فيه بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة .

وهنا تبدو لنا شخصية واشنطون على أجلها وأبسطها . فإن هذا الرجل الذى أصبح الجمهور يحبه بل يعبده لم يُزْهَ بالنصر ولم يعتز بمقامه بل عاد إلى مزرعته فلاحاً يدرس كتب الزراعة ويزرع الأرض متزوياً عن الناس ما كفاً على فلاحة الأرض ، كأنه لم يكتب بيده ويحقق بسيفه وثيقة الاستقلال لأمته .

وفى ١٧٨٩ حين انتهت الولايات الثلاث عشرة من وضع الدستور الاتحادى لحكومتها استدعى من مزرعته لكى يكون الرئيس الأول لهذه الجمهورية الجديدة . وهنا نجد فى مذكراته اليومية التى كان يكتبها بالمزرعة فى اليوم الذى غادرها فيه هذه الكلمات التالية : « ١٦ مارس . ودعت المزرعة وودعت حياتى الخاصة وهناءتى المنزلية . وغادرت كل ذلك إلى نيويورك بنفس مثقلة بإحساسات من القلق والألم لا تستطيع الألفاظ أن تعبر عنها . وكلى رغبة فى أن أخدم وطنى وألبى نداءه ، ولكن مع ضعف الأمل فى أنى سأحقق ما ينتظر منى » .

وقضى واشنطون مدة الرياسة ثم أعيد انتخابه مرة ثانية . وكان يعانى متاعب كثيرة . فإن الحكومة الأمريكية كانت فى طفولتها ليس لها سند من سوابق الماضى ولا قوة من خطط المستقبل . وكان هاملتون وجيفرسون يتراوحان الرأى العام ويهيئ كل منهما خميرة خاصة للمستقبل . فكان هاملتون يطلب إيجاد دولة عامة يرأسها ملك أو رئيس ينتخب مدة حياته مع أقل ما يمكن من السلطة لكل من الولايات . وكان يطلب تأييد الشراء والمال والبنوك والصناعة ، فى حين كان جيفرسون الذى عاش فى فرنسا أيام فولتير وديدرو وروسو يطلب حماية الفقراء وبعض الاستقلال للولايات . وكان جيفرسون يتكلم كأنه ميرابو فى الثورية الفرنسية . ومن كلماته :

« إن طغيان المشترعين الآن وفى المستقبل لسنوات عدة قادمة سيبقى أعظم الأخطار الماثلة أمامنا . ثم سينشأ بعد ذلك طغيان القوة التنفيذية . ولكن هذا الخطر سيكون فى مستقبل أبعد » .

ومات واشنطون فى ١٧٩٩ بعد أن استمر الدستور والإدارة فى أنحاء البلاد والحياة العامة لأى إنسان تخفى كثيراً من أخلاقه لأنه يضطر إلى أن يتزيا بزيها .

ولكن النزاع الذى قام بين واشنطون وجيفرسون يدل على أنه كان ينزع إلى الحكم الجمهورى راضياً بما فيه من حرية واسعة للأفراد . وكان بعيداً عن التهور ، يحب أن يرى مقاليد الحكم فى أيدى المتعلمين دون الغوغاء . والأغلب أنه كان يعبر فى هذا عن رأى القادة والساسة المستنيرين الذين كانت تتنازعهم عاطفتان إحداهما تلك المثليات العالية التى كانت تستهدفها الثورة الفرنسية ، والأخرى ذلك الخوف من الشطط الذى وقعت فيه .

أما حياته الخاصة فتدل عليها معيشته فى مزرعته ، فإنه كان يأنف من البذخ والأبهة . وكان يضبط نفسه ويلتزم مقياساً عالياً من الأخلاق . فإنه بعد أن خطب خطيبته التى تزوجها بعد ذلك أرسل خطاباً إلى مستر فيرفاكس يخبرها فيه أنه كان يحبها ، ولكن شرفه منعه من أن يبوح لها بهذا الحب وهى متزوجة .

وقبل وفاته بسنة وكان عمره وقتئذ ٦٦ عاماً أرسل إليها خطاباً قال فيه : « إن جميع الحوادث التى مرت بى لم تستطع أن تنزع من رأسى تلك اللحظات السعيدة — وهى أسعد ما فى حياتى — التى استمتعت بها فى رفقتك » .

ومع أن الشعب كان ينوى انتخابه للرياسة للمرة الثالثة فإنه أصر على الرفض . وإلى واشنطون تعزى إلى حدما كراهة الأمريكيين للاشتباك فى المشكلات السياسية العالمية ورغبتهم فى تنظيم بيتهم قبل كل شىء . ويجب أن نذكر أن الأمريكيين فى عصره كانوا يجدون أوربا منكوبة بالمطامع والخلافات وشهوات الفتح والامتلاك .

وكانوا أمة صغيرة ناشئة يرسمون مثلياتهم عن الحرية والإخاء والتسامح ويحسون أنهم بناة المستقبل فيجب أن يتوقوا كل ما وقعت فيه أوربا . وقصارى ما كانوا يطمحون إليه أن يجدوا الوسائل ميسرة للتجارة العالمية الحرة .

وما دمنا فى سياق الحديث عن الرئيس الأول للولايات المتحدة فإنه يحسن أن نذكر شيئاً عن وظائف الرياسة كما نص عليها الدستور الذى اشترك واشنطون فى دعمه . فالرئيس يتعاون مع مجلسين : أحدهما مجلس الشيوخ الذى يمثل الولايات بحساب شيخين لكل ولاية بصرف النظر عن عدد سكانها ، فهو الآن مثلا ٩٦ عضواً يمثلون ٤٨ ولاية . ويبقى الشيخ ست سنوات ، ويغير ثلث الأعضاء كل سنتين . أما مجلس النواب فينتخب أعضاؤه بحسب السكان لمدة سنتين . وليس للرئيس الحق فى أن يقدم مشروعاً للبرلمان ، ولكن له أن يرسل الرسائل للتنبيه

والانذار بشأن المشروعات التى يحتاج إليها الشعب . وعندما يدرس البرلمان مشروعاً ويقدمه للرئيس لكى يصير قانوناً يمكن الرئيس رفضه فى مدى عشرة أيام . ووكيل الرئيس الذى ينتخب معه يرأس مجلس الشيوخ ، وهو حلقة الاتصال بين الرئيس والبرلمان . وللرئيس الحق فى اختيار وزرائه . ولكن ليس لهؤلاء الوزراء أن يدخلوا أحد المجلسين ويناقشوا الأعضاء فى أى مشروع . على أن مجلس الشيوخ يجب أن يحصل الرئيس على موافقته عند تعيين كبار الموظفين فى السفارات والمحكمة العليا وغيرها . وإعلان الحرب من حق البرلمان وحده . ولكن خطة الرئيس قد تؤدى بالطبع إلى حال الحرب دون أن يكون للبرلمان قوة على منع ذلك . وكل معاهدة تحتاج إلى موافقة ثلثى الأعضاء فى مجلس الشيوخ . فإذا كانت المعاهدة تنطوى على التزامات مالية فلا بد عندئذ من موافقة مجلس النواب أيضاً .

وهناك ما يسمى « المحكمة العليا » وهى مؤلفة من تسعة قضاة يختارهم الرئيس بموافقة مجلس الشيوخ ، ولا يجوز عزلهم . وهذه المحكمة تفصل فى كل نزاع ينشأ بين إحدى الولايات وبين الحكومة المركزية ، ونستطيع أن تحكم بإلغاء أى قانون يخالف الدستور .

***

الأمم الديمقراطية كثيرة ، ولكل منها لونها الخاص فى النزعات الديمقراطية . ومن الحسن أن نعرف فى مصر هذه الألوان كى نقارنها بنظائرها عندنا فنعرف موقفنا أو مرتبتنا بين الأمم .

والولايات المتحدة هى أكبر الأمم الديمقراطية مساحة وأكثرها ثراء ، حتى لتكاد نيويورك تكون العاصمة التجارية للعالم ، كما تكاد واشنطون تكون العاصمة السياسية له . وقد تقبّل العالم « النقط الأربع عشرة » التى أذاعها الرئيس ولسون فى الحرب الكبرى الأولى ، كما تقبل الحريات الأربع وميثاق الأطلنطى اللذين أذاعهما الرئيس روزفلت كما لو كان كل من هذين الرئيسين يمتاز بمزية عالمية خاصة تتجاوز حدود وطنه . ومرجع هذا أن العالم يحس أن الولايات المتحدة الأمريكية تتبوأ مركز الزعامة والقيادة للأمم الديمقراطية . ومن هنا يجب أن نعرف شيئاً عن الديمقراطية الأمريكية .

يعود النظام الديمقراطى فى الولايات المتحدة إلى سنة ١٧٧٦ حين أعلن الثائرون الأمريكيون استقلالهم وانفصالهم عن الإمبراطورية البريطانية . ونصوا فى وثيقة الاستقلال على ما يلى :

« نحن نؤمن بهذه الحقائق البديهية : وهى أن جميع الناس قد خُلقوا متساوين وأن خالقهم منحهم جميعاً حقوقاً لا يملكون النزول عنها . ومن هذه الحقوق الحياة والحرية وابتغاء السعادة . وأن الحكومات إنما تستمد سلطانها المشروع من رضاء المحكومين . فإذا اتجهت أية حكومة مهما يكن شكلها إلى محو هذه الحقوق فإن للشعب أن يغيرها أو أن يمحوها ويقيم مكانها حكومة تستند إلى هذه المبادئ وتنظم سلطانها على نحو يكفل للشعب سلامته وسعادته».

هذه هى شهادة الميلاد للجمهورية الأمريكية . وهى تنص على حق الشعب فى هدم الحكومة إذا اعتدت على حقوقه الأصلية . ثم نجد أبراهام لنكولن بعد ذلك بخمس وثمانين سنة أى سنة ١٨٦١ يؤيد هذا الرأى بقوله : « هذه البلاد ملك للشعب الذى يقطنها . وإذا ضاق هذا الشعب بأخطاء الحكومة القائمة فله أن يستعمل حقه الدستورى فى تعديلها أو حقه الثورى فى هدمها » .

فيجب أن نذكر عن نظام الحكم الديمقراطى أن للشعب الأمريكى حقين هما حق دستورى فى تغيير الحكم ، وحق ثورى فى هدم الحكم .

وأمة تنشأ ولها مثل هذه الشهادة الميلادية يجب أن تعيش حرة . ولعله مما يفيد أن نذكر هنا أن دستور الولايات المتحدة ينص أيضاً على أنه لا يجوز للحكومة أن تنكر على أحد حق حمل السلاح ، كأن الذين وضعوا الدستور ذكروا أنه لا يمكن هدم الحكومة بلا سلاح . ولذلك يجب أن يهيأ الشعب بالسلاح ، حتى إذا شاء هدمها استطاع ذلك .

ومما يجب أن نستبصر به فى تفهم الديمقراطية الأمريكية هذه الشروط التالية التى نستخرجها من دستور الولايات المتحدة ، وغايتها جميعاً صيانة حريات الشعب أزاء طغيان الحكومة :

١ — لا يجوز للبرلمان (الكونجرس) أن يسن قانوناً لاحتضان دين معين أو لمنع الممارسة الحرة لأى دين آخر .

٢ — ولا يجوز للبرلمان تحديد حرية الخطابة أو حرية الصحافة .

٣ — ولا يجوز له أن يسن قانوناً بشأن حق الشعب فى الاجتماعات السلمية وحقه فى رفع العرائض إلى الحكومة لتصحيح أخطائها .

٤ — ولا يجوز للبرلمان منع الشعب من حمل السلاح .

٥ — ولا يجوز إيواء الجنود فى المنازل إلا بعد رضا أصحابها مدة السلم . أما مدة الحرب فلا يجوز هذا إلا وفقاً لنظام ينص عليه قانون .

٦ — ولا يجوز انتهاك حرمات الأشخاص والمنازل والأوراق والممتلكات سواء أكان هذا الانتهاك بالتفتيش أم بالقبض غير المشروعين .

٧ — ولا يجوز اعتقال أحد لكى يجيب عن جناية قتل أو أى جريمة شنيعة أخرى إلا بعد حكم من هيئة محلفين كبرى . . . ولا يجوز إجباره على أن يكون شاهداً على نفسه ، كما لا يجوز أن يحرم من حياته أو حريته أو ممتلكاته بغير الوسائل القانونية .

٨ — ولا يجوز للدولة الاستيلاء على الممتلكات الخاصة بدون التعويض العادل .

٩ — وفى جميع الاجراءات الخاصة بالمحاكمات الجنائية يكون للمتهم الحق فى محاكمة علنية وعاجلة أمام هيئة محلفين نزيهين فى الولاية والمركز اللذين وقعت فيهما الجريمة . . . وللمتهم الحق فى إجبار الشهود الذين فى مصلحته على الحضور كما له الحق فى تعيين المحامين عنه .

١٠ — يجب ألا يفهم من تعديد بعض الحقوق فى الدستور الإنكار لسائر الحقوق التى يملكها الشعب أو التصغير من شأنها .

***

ونحن حين نتحدث عن رؤساء الولايات المتحدة يجب أن نذكر هذه الشروط التى يستضىء بها كل رئيس كلما أقدم على مشروع كبير أو كلما أحس حيرة فى اتجاهاته وخططه . فإنها شروط المجتمع الديمقراطى الذى يطلب من الدولة أن تخدم الفرد لأنها أنشئت من أجله ، ولم يخلق هو من أجل الدولة كما هو الرأى الشائع عند الحكومات الفاشية .

وقد رأس الولايات المتحدة منذ ميلادها إلى الآن عدد كبير من الرجال البارزين ، كل منهم يستحق أن يترجم لحياته فى كتاب . وبعضهم قد حقق

لنفسه شخصية عالمية . فنحن حين نذكر ولسون أو روزفلت لا ترتسم صورة أحدهما فى أذهاننا باعتباره الرئيس للولايات الأمريكية بل اعتباره الزعيم العالمى الذى يضع الترسيمات الجديدة لحياة مثلى يستمتع بها جميع البشر فى القارات الخمس. فإن كلا منهما قد قصد إلى غاية سامية هى إلغاء الحروب . فوضع الأول شروطه الأربعة عشر التى تمخضت عن عصبة الأمم ووضع الثانى — بالاشتراك مع ثيس الوزارة البريطانية — ميثاق الأطلنطى ثم الحريات الأربع .

هذا الروح العالمى هو ثمرة المذهب الديمقراطى الذى ينهض على احترام الإنسانية بصرف النظر عن السلالة أو اللون أو الشرق أو الغرب . وكما كانت أثينا ينبوع الديمقراطية للعالم فى العصر القديم ، قد أصبحت واشنطون ينبوع الديمقراطية للعالم فى عصرنا .

ولكى نفهم العوامل التى ولدت فيها الولايات المتحدة يجب أن نعرف رجلين هما هاملتون وجيفرسون . فقد قام صراع بين هذين الرجلين قبل وضع الدستور على المبادئ العامة التى ينبغى أن يبنى عليها . فقد كان عدد الولايات قبل الاستقلال ١٣ ولاية . وكانت كل منها حريصة على صيانة استقلالها . كما كانت هناك اتجاهات صناعية ومالية فى المدن تخالف الاتجاه الزراعى فى الريف . وكان على الشعب الأمريكى أن يختار نظام الحكم هل يجب أن يكون باستقلال الولايات كل منها يبقى حرًّا فى سن قوانينه ، أم تندغم جميعها فى دولة واحدة وتنزل كل ولاية عن استقلالها ؟

فكان هاملتون يدعو إلى حكومة مركزية قوية فى واشنطون تخضع لها الولايات وتنزل عن استقلالها . وقد أنشأ لهذا السبب صحيفة « الاتحادى *The Federalist* » ودعا إلى موتمر سنة ١٧٨٧ على هذا الأساس . وكان يرى أن الرئيس يختاره البرلمان مدى حياته . وأنه ، أى الرئيس ، يعين الحكام للولايات . ولكن جيفرسون كان يقاوم هذا الرأى ، فيطلب أكبر قسط لاستقلال الولاية وأقل قسط من السلطة للحكومة المركزية . وانتهى المؤتمر إلى رأى جيفرسون ، وأصبحت سلطة الولاية غير محدودة إلا بالمقدار الذى نزلت عنه للحكومة المركزية فى واشنطون . ولكن سلطة هذه الحكومة المركزية محدوده ومعينة بنصوص لا يمكن أن تتجاوزها . ونحن نجد الآن أن لكل ولاية حقها فى سن القوانين الخاصة بها عن الزواج والطلاق ومعاقبة المجرمين

وقوانين الصناعة والمال . ولا يمكن حكومة واشنطون أن تتدخل إلا فى الشؤون الاتحادية العامة التى نص عليها الدستور .

وهنا نرى أن جيفرسون تغلب على هاملتون . ولكنا نرى انتصاراً لهاملتون على جيفرسون فى ناحية أخرى ، هى توجيه الأمريكيين إلى الصناعة والتجارة بدلا من القنوع بالزراعة . فقد كان جيفرسون يتخيل المستقبل الاقتصادى للشعب الأمريكى قائماً على الزراعة فقط . وكان يدعو إلى الهجرة نحو الغرب الذى كان لا يزال بكراً حافلا بالغابات لايسكنه غير الأمرنديين أى السكان الحمر الأصليين . وكان يطلب حماية المزارع ، ولا يرى التاجر أو الصانع جديرين بالحماية . ولكن الشعب الأمريكى اعتنق مذهب هاملتون واتجه الاتجاه الصناعى التجارى الذى حقق للولايات المتحدة تفوقاً عالميا لم تكن لتحققه لولاه .

ومع أن الولايات المتحدة أمة عظيمة فى عصرنا فإن الطوالع الاقتصادية والسياسية تجعلنا نشعر بأنها سوف تكون فى المستقبل أعظم بكثير مما هى الآن فإنها تحوى أوسع مساحة من الأرض الخصبة ، إلى جنب كنوز لاتكاد تفنى من المعادن والفلزات . وقد نمت فيها ثقافة علمية تستغل هذه الموارد وتبنى بها حضارة مادية وروحية لم يعهد التاريخ مثلها فى الماضى .

سلامة موسى